

الجزء الثالث

الإسلام: الإجابة والحل

العالم الذى يراقبه الماركسيون، والليبراليون، والمسلمون، هو عالم واحد، كذلك أدوات الحس لديهم واحدة. إنهم يبصرون بالعيون نفسها، ويفكرون بالعقول نفسها. ومع ذلك، فإنهم يصلون - الكثير منهم بالأسلوب العقلى - إلى نتائج متباينة للغاية حول حدود الإدراك الحسى، وطبيعة الكون، وهندسته، وحول طبيعة ومصير الإنسان. إن نظرة المسلمين للعالم ذات ترابط وعقلانية مثل نظرات بعض الآخرين، لكنها تنفرد بتأسيسها على كتاب، ألا وهو القرآن، وسنة محمد بن عبد الله.

فيما يلي بيان العناصر التى تجعل من الإسلام بديلاً للنظرات الأخرى للعالم، التى سبق ذكر بعضها.

• الإيمان بالله

■ وجود الله وذاته

داخل العالم الإسلامى، نادرًا ما يكون وجود الله وذاته موضوعًا للمناقشة. فذلك من القضايا المسلم بها. قدمت امرأة عجوز نموذجًا لهذا الموقف عندما قيل لها إن أبا حامد الغزالي (مات ١١١١ م)، قد قدم ألف دليل على وجود الله، فكانت إجابتها الخالدة: «وماذا بعد؟ ما لم يكن لديه ألف شك، ما كان عليه البحث عن ألف دليل»!

يعود الغياب النسبى للنقاش حول وجود الله بين المسلمين، إلى يقينهم بأن الله فوق التصور، شديد المحال، أبدي، لا يحده مكان ولا زمان - لذلك فهو يتجاوز الفهم الإنسانى.

■ الفلسفة غير الميتافيزيقية

لقد توصلوا إلى هذه النتيجة أخيرًا مع الفلسفة غير الميتافيزيقية للفيلسوف المسلم أبى الحسن الأشعري (مات ٩٣٥ م)، أى قبل إيهانويل كانت بوقت طويل. لقد وضع الأشعري

نهاية صارمة للتخمينات الفلسفية للهلينستية الجديدة التي دخلت إلى الإسلام عن طريق المعتزلة الذين يمثلون مدرسة علم الكلام. لقد وصل المعتزلة بالفعل إلى الموقف الذى لا يمكن تبريره، بتعريض القرآن للنظر العقلى فى قضايا فكرية خلافية مثل أبدية العالم، وخلق القرآن، والاختيار والجبر، إلى الحد الذى يجعل اعتبار الحكم البشرى الخاص بهم هو المرجعية العظمى التى يجب أن تسود.

بفعلهم ذلك، فإنهم قد انتهكوا بعناد التحذير الوارد فى الآية السابعة من سورة آل عمران:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾

على التقيض من تجربة المعتزلة، اختارت مدرسة الأشعرية قبول الصعوبة، أو الجوانب التى تخفى على الفهم (المتشابه) من القرآن، بقاعدة «بلا كيف، ولا تشبيه». بمعنى بدون البحث والتقصى ولا المقارنة فى هذا الصدد. باستخدام هذا التخمين النظرى المعرفى القطرى (إذا لم نقل اللاأدرية العقلانية) وضع الأشعرية، ومن بعدهم الغزالي النهاية للماورائيات (ميتافيزقيات) فى العالم الإسلامى - ٥٠٠ سنة قبل ظهور كانت، وألف سنة قبل فيتجنشتاين.

ما هو أكثر إثارة للإعجاب، هو إدراك الأشعرية لاستحالة الحصول على برهان استقرائى لقانون العلية (السببية). وكان وصولهم إلى هذا الموقف متقدماً بتسعائة عام عن دافيد هيوم. فى الحقيقة، يمكن اعتبار كارل پوپر أيضاً فيلسوفاً أشعرياً، بسبب أنه انتبه إلى عجز العقل عن إثبات صحة الفروض الأساسية للعلم.

وجه الغزالي ضربة قاضية إلى التخمين الميتافيزيقى، وإلى نظرية للوجود تقوم بالكلية على الحدس، عندما أدرك - أثناء أزمته الشخصية - أن مداركه العقلية كانت تقوده نحو نهاية لا يمكن تجاوزها. هنا، فإن الغزالي - أعظم علماء العقائد، والخبير القانونى (الفقهى)، ورجل الوقت فى الفلسفة - قام بتحول تام فى آرائه بإصدار كتابه التاريخى «تهافت الفلاسفة»، الذى ترجم إلى اللاتينية، والإنجليزية. فى هذا الكتاب، أشار الغزالي، بكل رضا، إلى أن كل الأنظمة الفلسفية المعروفة - بما فيها التى ليعقوب الكندى (مات ٨٧٣م)، ومحمد بن زكريا الرازى (مات ٩٢٣م)، وأبى نصر محمد الفارابى (مات ٩٥٠م)، وأبى على الحسين بن سينا (مات ١٠٣٧م)، تقوم على قواعد مفترضة وغير قابلة للتوضيح، وبذلك فلا يمكن الاعتماد عليها.

فى خطوة ثانية، امتد انتقاد الغزالي للعقلانية، ليشمل الرياضيات، والمنطق، وفلسفة

التشريع، وعلم الإلهيات أيضًا. لقد كثف من رواه في سيرته الذاتية «المنقذ من الضلال»، التي تحوى «الاعترافات» الشهيرة عن محاكماته الذاتية المرهقة. على الإجمال، أنكر الغزالي قدرة أى علم على توفير البصيرة النافذة فى أية حقيقة غير محسوسة، وشدّد على أن كل العلوم قامت على قواعد بديهية غير معصومة من الخطأ. الرياضيات، فى مفهومه، تتيح فقط نتائج دورانية متكررة لا تقدم مزيدًا من الوضوح. المنطق لا يحتوى قيمة معرفية أو إدراكية؛ حيث لا يمكن العثور على قيود صحيحة عامة ملزمة له. هكذا، فإن كل معارفنا عن العالم غير المرئى، ناتجة عن افتراضات لا يمكن إثباتها، وأيضًا:

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

الدين ليس مسألة إقامة دليل، بل هو مسألة إيمان.

وفى النهاية، بعد أن فند العقلانية بأدلة عقلانية، أكد الغزالي على وجود طريق واحد إلى المعرفة: الحدس الصوفى. لم يكن وحده الذى وصل إلى هذه النتيجة. حتى ابن سينا ارتبط بالعرفان الصوفى المسمى «الفلسفة الشرقية». لكن دعنا ننصت أكثر إلى الغزالي:

«الإلهام هو حالة خاصة تكتشف فيها العين الداخلية.. الأسرار التى يستحيل على العقل الوصول إليها»، «أنا مدين فى حكمى، ليس إلى سلسلة الأدلة والبراهين، ولكن إلى النور الذى قذف به الله فى قلبى».

وهكذا، فقد وصل الغزالي إلى اليقين بوجود الله، وإلى صدق النبوة «ليس من خلال البراهين المحددة، ولكن بواسطة تداعى الأسباب، والظروف، والبراهين التى من المستحيل سردها».

هذا الطريق، بعد إغلاق الباب على التساؤل العقلى، تركه الفلاسفة المسلمون مفتوحًا بشكل شخصى للغاية، ومقصورًا على فئة قليلة للاقتراب من الحقيقة المطلقة. إيبانويل كانت، بيقظته الزائدة قليلًا، قد توصل إلى نفس النتيجة بالتسليم فى كتابه «نقد العقل العملى» بالله المطلق الذى لم يتمكن من إقامة الدليل عليه فى كتابه «نقد العقل الخالص».

إلى يومنا هذا، ظلت تلك هى الخلفية الفلسفية للإيمان - غير التخمينى للمسلمين - بوجود الله الأحد والواحد (التوحيد).

بالطبع، هناك فلاسفة مسلمون قد انحرفوا عن هذا الطريق الوسط من اللاأدرية العقلانية.

ابن رشد (مات ١١٩٨م) فعل ذلك، على الجانب العقلي، في هجمته المضادة العنيفة في عمله «تهافت التهافت» (ترجم إلى اللاتينية والإنجليزية). وأيضاً فعل ذلك محيي الدين بن عربي (مات ١٢٤٠م)، شيخ الصوفية الأكبر، من الناحية الروحانية (الغنوصية). لكن كل من هاتين المحاولتين العقلية، والجانب عقلية، كان لهما تأثير ضئيل داخل العالم الإسلامي.

كان لابن رشد - تحت اسم «أفيروس» - تأثير أكبر على توماس الأكويني والمدرسية المسيحية عموماً، عن تأثيره على الأكاديميين المسلمين. وينطبق القول على ابن عربي، الذي أصبح كتابه «الفتوحات المكية» أكثر انتشاراً بين المستشرقين مثل هنري كوربان، والصوفية الغربيين مثل فريثوف تشاون، ومايكل كيثيكس، من انتشاره داخل دار الإسلام.

■ صفات الله

المناقشات عن الله داخل العالم الإسلامي، لا تركز لذلك على وجود الله، أو ذاته، وبدلاً من ذلك تركز على صفات الكمال المختصة به، كما أوحى بها القرآن، وجاءت في السنة النبوية.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

يذكر القرآن الله باسم «الرحمن» مراراً، وأيضاً «الرحيم». واختصت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الحشر بذكر أكبر عدد من أسماء الله الحسنى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٢] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ

اللَّهِ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [٢٣] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢٤].

وجاء في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال»، «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب».

وعموماً، يقاوم المسلمون إغراء الانغماس في التشبيه أو خلع الصفات البشرية على الله، فهم على وعى بأنه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].
 وأنه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].
 وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

في الوقت نفسه، هم يحتمون بالأسماء، لكي يهربوا من موقف تصبح فيه صورة الله في الدرجة القصوى من التجريد إلى حد فقدان المعنى، مثلما كان الحال مع كل من مدرسة المعتزلة الفكرية، والربوبيين الموحدين في القرن الثامن عشر.

* * *

• الإيمان بالرسالة

هو من مقتضيات الإيمان بالله كخالق ورب للكون، والهادي لكل مخلوقاته.
 ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].
 ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].
 لا يمكن إنكار جواز النبوة منطقيًا، ما دام قد حصل اليقين بوجود الله.

حاجة البشر للنبوة واضحة. مثلما رأينا، فقد وصل العلم الحديث إلى حدود لا يمكن تجاوزها إلا بمساعدة فروض نظرية لا يمكن التحقق من صحتها. هل العمل بتصورات من مثل الانفجار العظيم، أو نظرية الأوتار الفائقة، أو فكرة الخلق الذاتي والتنظيم الذاتي للحياة، هو أكثر عقلانية من الإيمان بإمكانية وصول الرسالة المقدسة للجنس البشري؟

مع ذلك، يظل السؤال الرئيسي هو كيفية معرفة هوية النبوة الحقيقية، وليس هو إمكانية أو الحاجة إلى النبوة، وأيضًا تمييز النبوة من ادعاءات المحتالين من أمثال مسيلمة. يشهد المسلمون بإيمان بالله، وإيمان بكتبه ورسوله، واليوم الآخر.

* * *

• الإيمان بالقرآن

ليس المقصود هنا تقديم كل الأدلة الفكرية، أو حتى الجمالية عن المصدر الإلهي للقرآن (ونبوة محمد بالتبعية). تقوم بعض البراهين على:

- الأساليب اللغوية المتفردة للقرآن، بالمقارنة بالشعر العربي والنثر قبل الإسلام.
- جمال التعبير.
- التركيب المثير للدهشة، متضمنًا التواؤم بين المضمون والصوت.
- الترابط الداخلي، والتطابق في المضامين، حتى مع الاكتشافات العلمية الحديثة (القرآن هو النص المقدس الوحيد، الذي يخلو من الأخطاء التاريخية والعلمية).
- صدق إخباره بالغيب المستقبلي.
- نفاذه في النفس البشرية.
- قيمه السامية المتجاوزة للزمان والمكان.
- عالميته التي لا تفضل أحدًا على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.
- حكمته المتعالية على أي حكمة بشرية.

لقد بذل كلٌّ من أنجليكا نيورث (برلين)، ونيل روبنسون (ليدز)، وأحمد على الإمام (الخرطوم) جهودًا مضيئة في إيضاح الأصلية، والتركيب المتجاوز، والمستعصي على النظر للقرآن الكريم. لكن غير الناطقين بالعربية، مع وجود بعض الاستثناءات الفريدة مثل محمد أسد، يمكنهم بصعوبة إتقان العربية الفصحى إلى الدرجة التي تمكنهم من الفهم الشكلي للقرآن، ورؤيته كمعجزة لغوية. لكن يمكن لكل شخص قبول حكمته من حيث بصيرته النافذة إلى عمق الطبيعة البشرية، وعالمية القيم التي يحتويها، وكذلك تجاوزها لحاجز الزمن، وجاذبيته للعقل البشري، واتصافه بالكونية أيضًا.

مع ذلك، مثلما هي الحال دائمًا فيما يتعلق بقضايا الإيمان، فكما أن العديد من الناس يحتاجهم القرآن عند أول لقاء، فهناك منهم من لا يحرك فيه ساكنًا، الإيمان هو في الواقع هبة من الله.

• المعرفة العلمية

أ. الإسلام والعلم

يبدأ الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب بقضايا الإيمان من أجل التوضيح الذي لا إبهام فيه، بأن نظرة الإسلام إلى العالم، تقوم جوهرياً على الإيمان، الإيمان بالله، وبرسالة محمد، وبأن القرآن هو الوحي الإلهي، ذلك الإيمان لا يمكن الاستغناء عنه والركون لشيء آخر. من يرفض المغامرة الروحية للإيمان، لن يتسنى له تعويض ذلك باللجوء إلى العلم.

لا يعني ذلك أن الإسلام يتخذ منحى سلبياً تجاه العلم، العكس هو الصحيح تماماً! يشتمل القرآن على ما يصل إلى ٧٥٠ آية تحض الناس على دراسة الطبيعة، والتأمل في وجودهم والكون من حولهم، وعلى أن يحسنوا استخدام عقولهم، مثل:

﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ١٢٨].

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿ سَتَرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد كرر القرآن كلمة العلم والعقل والنظر والرؤية التي بمعنى المعرفة مئات المرات.

في الحقيقة، الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا توجد لديه أية مشاكل على الإطلاق مع العلم. ينظر المسلمون إلى الطبيعة على الدوام على أنها كتاب آخر، كتاب ثان من الله ينبغي قراءته وفك ألغازه، لذلك انتشر بينهم القول إن الكون هو كتاب الله المشاهد أو المُعَايَش، مقارنة بالقرآن الذي هو كتاب الله المقروء. وهم مقتنعون بأنه لا يوجد أي تناقض فعلي بين العلم بالإلهيات والعلم الدنيوي، بمعنى العلم بالإلهيات الذي لا يحل محل العلم الدنيوي، والعلم الدنيوي الذي لا يحل محل العلم بالإلهيات. وفي الحقيقة، فإن التناقض بين العلم الدنيوي والديني في الثقافات الأخرى، دائماً ما كان تناقضاً بين المظاهر العلمية الزائفة للدين، والمظاهر الدينية الزائفة للعلم. حدوث أي تناقضات بين هذين المجالين من المعرفة، هو عادة يعود إلى الخطأ التصنيفي (كين ويلبر).

وفي نهاية الأمر، فقد كان العلماء المسلمون هم الذين أدخلوا «الملاحظة» و«التجريب» للظاهرة الطبيعية في أدق تفاصيلها. هذان الأسلوبان كانا غريبيين على منهجية المفكرين اليونانيين القدامى. وفي الحقيقة، فإن القوة المحركة للانفجار العلمي في كل المجالات في نشأة العلم الإسلامي وصعوده، كانت هي الحث القرآني المتكرر على أن يستخدم الإنسان عقله، وأن يشاهد الطبيعة والكون ويتدبر، وأن يستخلص من ذلك النتائج والعبر.

بالتبعية، لم يكن هناك إحراق للكتب في الإسلام. وكذلك لم يتعرض الأكاديميون للمحاكم والإحراق مثل ما حدث مع جاليليو جاليلي (مات ١٦٤٢م)، وچيوردانو برونو (مات ١٦٠٠م) في العالم الغربي. فيها عدا الفترة القصيرة لمحنة استجوابات المعتزلة أيام الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢م) في بغداد، فلم تحاول السلطات الإسلامية فرض وجهات نظر فلسفية معينة.

لم يعيش الإسلام التناقض المرير بين الكنيسة والعلم، الذي ميز تاريخ الفكر الغربي حتى بداية التنوير، وحتى تحقق انتصار الأسلوب العلمي التجريبي الوضعي، والذي يظهر في الحداثة كما نعرفها في أيامنا هذه. كما لم يحصد ثماره الميرورة: أي الرفض الغربي المنظم للدين بواسطة العلم (*).

ب - أسلمة العلم

بينما يحتضن المسلمون العلم، بما يقدر على أن يعمل في إطار القيود الخاصة به، فإنهم يناضلون ضد الرفض المعاصر لكل أنواع المعرفة التي لا تتحصل من خلال التجربة العلمية: الرفض لكل الحقائق التي لا تخضع للملاحظة، وبالتالي فهي ليست كمية، والتي يجمع المنطقيون الوضعيون والتجريبيون على نفيها بالقول بأنها غير محسوسة (حرفياً: ليس في المقدور فهمها) بما في ذلك الحقائق الأخلاقية، والجمالية، والروحانية. بالنسبة للمسلمين، يتسم هذا المنهج بالاختزالية غير المقبولة؛ حيث إنه يستبعد الظواهر التي لا يعترها الشك مثل الموت، والحب، والتراحم، كما يفشل هذا المنهج في قبول «الحقيقة» في الجمال الظاهر في الطبيعة، والرياضيات «الأيقة»، وأيضاً في الفنون.

(* الشجرة المحرمة في الجنة - طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس هي شجرة المعرفة، ولذلك رفضت الكنيسة لقرون طويلة أي معرفة خارجة عن نطاقها اللاهوتي.

خلال جلسة عمل، في عام ١٩٨٣، في معهد ماكس بلانك للفيزياء والفيزياء الفلكية، في ميونيخ، قام «سيد حسين نصر» بكثير من الفهم، بإيجاز ناتج الأيديولوجية العلمية بقوله: «لا يستطيع الإسلام أن يقبل... العلم المعاصر الذي قد يحتزل ما وراء الطبيعة إلى علم النفس، وعلم النفس إلى علم الأحياء، وعلم الأحياء إلى علم الكيمياء، والكيمياء إلى الفيزياء، وبذلك يهبط بكل عناصر الحقيقة إلى المستوى الأدنى من التجلي وهو العالم الفيزيائي».

يرفض المسلمون هذا الاختزال الوضعي اليقيني، ويدافعون عن النظرة القدسية للعالم والتي تقوم على الروحانية، مقترنة بإمكانية الحصول على معرفة صحيحة من خلال الوحي الإلهي، لكنهم لا يرفضون الفكر الغربي، والثقافة الغربية، وأيضًا العلم الغربي بالجملة. في الحقيقة، الحدائث نفسها وأسلوبها الصحى في الشك المنهجي، وفي فك أَلغاز الرؤية للكون ذات السحر - لا تمثل مشكلة للمسلمين (عبد الكريم سوروش). ما يعترضون عليه، هو الخداع المصاحب للعلم. إنهم متفقون مع لويس باستور على أن «القليل من العلم يأخذك بعيدًا عن الله، لكن الكثير منه، يأخذ بناصيتك إليه جَلّ وعلا».

بالطبع، يعى المسلمون أن العلم هو نشاط إنسانى، وبذلك فهو معرض لكل الأخطاء الإنسانية، وكذلك القيم المتغلغلة في ثقافة رواده. ذلك هو السبب وراء أن مؤسس المعهد العالمى للفكر الإسلامى «إسماعيل الفاروقى»، وكذلك من جاء بعده «طه جابر العلوانى»، لم يصبها الكلل مطلقًا من الدعوة إلى «إسلامية المعرفة»، بمعنى، متابعة العلم داخل إطار القيم الإسلامية.

لا يمثل ذلك دعوة للمسلمين لإعادة اختراع العجلة، ولا العودة للبداية من حيث ينبغى للعلم الإسلامى أن يكون يعنى ذلك، إن العلماء المسلمين الحقيقيين والأتقياء، انطلاقًا من حيث نقف الآن، ينبغى عليهم البناء التدريجى للنظرة الكونية الخاصة بهم. يواصل هؤلاء المسلمون استخدام الطرق الغربية المعتمدة في الملاحظة، وجمع البيانات، لكن عليهم مداومة مراجعة الأسس النظرية التى شيدت هذه الطرق، مراجعة أقل على أسس البيانات، ومراجعة أكبر للافتراضات الأولية المادية.

* * *

● العلم الطبيعي

أ. القرآن والعلم

يمكن الاتفاق مع «موريس بوكاييه» في قوله إنه لا يوجد في القرآن ما يتناقض مع نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة.

لكن لا يمكن الاتفاق مع ادعاء «ياسين كساب» في كتابه «الألف حقيقة علمية للقرآن الكريم» بأن القرآن يشبه موسوعة علمية في الفيزياء، والكيمياء، وأيضاً علم الأحياء، بوصفه مصدرًا للمعرفة العلمية. وللأسف، فقد انحرف بعض المسلمين تحت تأثير الغواية «للبرهنة» على صحة ذلك، مدّعين - على سبيل المثال - بأن القرآن قد احتوى على معرفة كل ما يتعلق بالكهرباء، واستكشاف الفضاء ونظرية الانفجار العظيم، وما شابه ذلك.

ينبغي ألا نفقد على الإطلاق النظرة إلى القرآن على أنه ليس معجماً علمياً، ولكنه رسالة إلهية عن دور الإنسان على الأرض، وكيف تنتظم حياته على أساسها، وتأسيسها القواعد الأخلاقية.

ب. الكونية

طبقاً للقرآن، فقد خلق الله العالم بالحق، وإلحاق الحق:

﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، غافر: ٦٨].

ذلك يعني أن الله خلق الكون من «العدم»، وليس لعباً أو لهواً ولم يجرى مصادفة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولكن لهدف: هو أن يخلق الله خليفته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبذلك يُعرف الله الذي يستحق الحمد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

في خطوة تالية، يوضح القرآن مجيء الكون للوجود عندما انفجرت مادة مكثفة للغاية:

﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتلا ذلك ظهورها على هيئة غازات:

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١].

يقول بأن الكون يتمدد:

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

غالبًا ما يتحدث القرآن عن السماوات بصيغة الجمع - وفي بعض الأحيان عن سبع سماوات:

﴿ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

يبين القرآن، بالطبع، أن الكون قد خلق لأجل محدود، لذلك فهو ليس أزليًا:

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣].

وفي الواقع، فإن القرآن المجيد يعج بالأوصاف الدرامية لموقف «الساعة»:

﴿ إِنَّكَ زَلَّزَلَةَ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

ومجمل سورة الزلزلة:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. [الزلزلة: ١ - ٨].

وعندما يصل العالم إلى نهايته التي تشكل كارثة كونية، فإن الله يقول:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ ﴾ [القصص: ٨٨].

كل ما سبق، يتطابق مع أكثر النتائج العلمية حديثة. لا يمكن لأحد أن يشرح نظرية الانفجار العظيم بدون حدوث فعل للخلق يسبقها. لا يمكن لأحد أن يلغى احتمال وجود عدة أكوان

أخرى، قد تكون من مادة مظلمة (سلبية)، ولا يلغى احتمال الانسحاق العظيم، بمعنى رجوع التمدد الكوني إلى الاتجاه المعكوس، أو الطي.

جـ - الفيزياء

(١) الذرة

ورثت الفلسفة الإسلامية نظرية من التراث الإغريقي: إن المادة غير قابلة للانقسام اللانهائي. وعلى الرغم من أن القرآن يستخدم كلمة «الذرة» كمرادف عربي، مرتين في السورة التاسعة والتسعين (الزلزلة)، فإنه من قبيل المبالغة الزائدة في التفسير، الادعاء بأن ذلك سبق يفوق فيزياء الجسيمات فائقة الصغر.

يعرف المسلمون أن جميع العوامل، في كل من فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر، وفيزياء الأجسام متناهية الضخامة، توفر الاتزان الكامل لبعضها البعض، بدون أي نوع من الفوضى، وأن الحسابات الدقيقة المستولة عن ذلك، توضح أن الكون بأكمله، نزولاً إلى الذرة المفردة، يخضع للسيطرة المطلقة لصانعه:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي بَارَأَ الْمُصَوِّرَ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

أليس الأكثر بديهية هو وجود قوة واحدة ووحيدة - من وجود «صيغة حسابية للعالم» - والتي تجمع جميع القوى مع بعضها في تناغم أي الله!؟

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

(٢) الضوء

الأكثر إثارة للإعجاب والانتباه، هو حقيقة أن الله في سورة النور يقول:

﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

شبه الله نفسه بالنور، وهي حقيقة من الأهمية بمكان إلى الدرجة التي تعلت من شأن الفكر الديني الإشراقي الفلسفي للنور، الذي ارتبط بالصوفي شهاب الدين السهروردي المقتول (مات ١١٩١م)، والذي أطلق عليه بحق اسم شيخ الإشراق. كل ذلك قد يمثل رجوع الصدى لحقيقة أن الضوء يلعب دوراً متفرداً في الفيزياء بأنواعها.

(٣) العلية (السببية)

يعتبر القرآن أن الله هو العلة الأولى لكل المخلوقات، والتي يقوم على رعايتها بلا سنة ولا نوم ولا لغوب، إلى درجة أنه:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

القرآن لا يصطدم بفكرة قانون السببية «المستقل والطبيعي»، لكن القرآن يؤكد لنا يقيناً، أنه على الدوام:

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وهو أسلوب أو طريقة الله. هكذا، فإن لنفس الملاحظات عن تسلسل حوادث معينة هناك تفسيرات مختلفة.

على ذلك، تختلف النظريات عن السببية، ولكن النتائج واحدة في النهاية، والفضل يعود إلى ما ورد في سورة فاطر:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

(٤) الكيمياء العضوية

لا يترك القرآن مجالاً للشك على مستوى أدق التفاصيل، في أن الحياة قد خلقها الله، وأنها لم تتطور بمحض الصدفة. لم يتوافر برهان علمي على عكس ما سبق.

إضافة إلى ذلك، يشرح القرآن المجيد، أن الحياة بدأت من الماء:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يتوافق ذلك مع علم الأحياء المعاصر (*).

* * *

(* ننصح القارئ الذي يريد التوسع قراءة: «مختارات من تفسير الآيات الكونية في القرآن»، د. زغلول النجار، منشورات مكتبة الشروق الدولية.

• العلوم الاجتماعية

١. الخطأ التصنيفى

كما رأينا من قبل، تكمن مشكلة العلوم الاجتماعية الغربية فى أنها تقوم على أساس مقدمات زائفة عن طبيعة البشر، اقترضتها من مادية العلوم الطبيعية. منذ أيام جون ستوارت مل، فى عام ١٨٤٣، عندما طالب بتطبيق أساليب العلوم الطبيعية فى مجال العلوم الاجتماعية، ظلت الإنسانية تُدرس بنفس الأسلوب المادى، والاختزالى، والخالى من المعنى كما لو كانت فيزياء نيوتن.

وكان ذلك خطأ تصنيفياً هائلاً.

الطرق التى ورثتها العلوم الاجتماعية من العلوم الطبيعية قد أحبطت بالفعل أى مجهود قام به علم الأنسنة (الأنثروپولوجى)، وعلم الاجتماع، وأيضاً علم النفس، لفهم الإنسانية. وكنموذج لذلك، فإن فحص ٣٠ مرجعاً رئيسياً لعلم النفس عام ١٩٨٠، كشف النقاب عن خلو أى من هذه المراجع، من أى مرجعية للدين أو للعلوم الروحانية، دعك من ذكر الله (إبراهيم رجب).

فى الواقع، استوجب الأمر أولاً سقوط الفيزياء النيوتونية، ليتسنى للفيزياء الجديدة أن تطور مجالاً جديداً أمام العلوم الاجتماعية الغربية، وليعترف أيضاً بدرجة من السببية الروحية، فى أبحاث المخ، وعلم الاجتماع، وحتى وضع العوامل العقلية الذاتية على مقربة من قمة هرم التحكم البشرى.

ب. الطبيعة البشرية

هدف الإنسان فى حياته، من المنظور الإسلامى، هو معرفة الله، وعبادة الله بحمل أمانة التكليف بالعمل كخلفاء على الأرض. لا يتفق هذا مع منظور أن الإنسان قد «ألقى» به إلى الوجود بشكل تراچيدى (هيدجر)، أو أنه قد ضل طريقه داخل القنوط الوجودى (سارتر)، ولا أنه حيوان ذو ذكاء، تتحكم فيه أدنى غرائزه (فرويد)، أو سطوة شهوة القوة (نيتشه). إنه بدلاً من ذلك، خليفة كرمه خالقه، يسمو إلى العزة والعدل والخلود، يحركه الأمل فى الحياة الآخرة، وربما يكون قد ألقى به داخل هذه الحياة، لكن لأجل قريب: العودة إلى بيته، إلى ظل خالقه فى فردوسه الأعلى.

التناقض بين هذه الصورة الإسلامية عن الإنسان، وصورته التي تعتنقها العلوم الاجتماعية الغربية، لا يمكن تجاوزه، لا مكان للحلول الوسط أو التصالح بين هاتين الصورتين.

الحيوانات، مثلها في ذلك مثل الإنسان، كلها مخلوقات لله، وبوصفها من مخلوقاته فكل منها يتبع الأمة الخاصة به. الفرق أن الناس مكلفون، ولهم إرادة الاختيار.

* * *

• الأخلاق

أ. الإنسان هو كائن أخلاقي

الإنسان باعتباره كائنًا أخلاقيًا، قد أوكلت إليه مسيرة من خلال طريق محدد (عقيدة تتبعها شريعة)، وأن عليه ألا يتعدى حواجز معينة (الحدود)، وكل ذلك من أجل نجاحه في الدنيا والآخرة. وظيفة الشرع الإلهي هي أن يحمي الإنسان في وئام مع خالقه، ونفسه ومجتمعه، وبيئته.

من الواضح أن العلم عاجز عن توفير مثل هذه المجموعة من القواعد لممارسة الحياة، وبحلول القرنين: التاسع عشر والعشرين، حاولت المذاهب الفكرية المتعددة توفير الأخلاقيات - مثل الفلسفة النفعية - الفلسفة المحافظة سواء في أوروبا أو أمريكا - الماركسية - الرأسمالية - الفاشية - الليبرالية - وقد فشلت كلها جميعًا في تجنب الكوارث الهائلة، وتشهد القرون الثلاثة الأخيرة بذلك، خاصة القرن العشرين.

وسط كل الأديان، الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمهد للإنسان طريقًا متكاملًا للعيش، يسمح له وللمجتمع بأن يعيشوا معًا في رخاء، وفي توازن فريد. الباقية كلها إما تسحق فردية الإنسان، أو تحد من مسؤولياته الاجتماعية، أو تستبيح الآخر، سواء كان ذلك آخرًا من ناحية اللون والعرق أو الدين.

ب. اقتصاد ذو وجه إنساني

إن التطبيق الأمثل لذلك هو من خلال الاقتصاد الإسلامي؛ حيث إن هذا المجال العالی الفنية، يجب أن ينظر إليه أيضًا باعتبار مجموعة من الأخلاقيات على المستوى العام والمستوى الخاص. يشدد الاقتصاد الإسلامي على أن الهدف الأول والأخير للعمل يكمن في الرفاهية المادية والروحية للإنسان ولمجتمعه، الاثنین معًا.

لذلك، فإن مسألة منع استغلال الإنسان للإنسان، هي في حدها الأدنى إسلامية بقدر يماثل الاهتمام الماركسي. لا يطلب الإسلام نظاماً اشتراكياً، ولا بالطبع شيوعياً، ولكن نظاماً إنسانياً لأن كل البشر أولاد آدم وحواء، فهم ليسوا فقط متساوين، ولكنهم إخوة. يُحرم الإسلام الظلم بصفة عامة، ويجرمه بصفة خاصة في المعاملات المادية، فيمنع استغلال الفقراء والمحتاجين، ويضع شروطاً للتعاملات التجارية تمنع الخداع، وتمنع سطوة رأس المال في الربح، سواء ربح الطرف المقترض أو خسر، وتمنع الاحتكار.

ويرى الإسلام أن الملكية الخالصة هي لله، وأن الله استخلف البشر فيما آتاهم من مال، أو سلطة، وعليهم أن يعملوا بها لصالح مجتمعاتهم، وفرض عليهم إقامة العدل الاجتماعي، والتكافل في المصائب والأزمات.. وحرَم الإسلام - كما حرمت اليهودية (*) والمسيحية - الربا:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩].

لذلك، يقترح علماء الإسلام ترتيبات للمشاركة في الغنم والغرم (المشاركة في الربح والمخاطرة).

قد يكون هذا الاقتصاد أقل إنتاجية من الاقتصاد الرأسمالي الخالص - وقد لا يكون! - لكن الأساس: أن الكفاءة وعائد رأس المال ينبغي ألا يصبحا غاية في ذاتيهما، يود الإسلام قيام اقتصاد إنساني.

ج - الترايط الأسرى

يشدد الإسلام على الأهمية الجذرية، وبالتالي على قدسية الأسرة، باعتبارها اللبنة الأساسية

(*) حرّم العهد القديم الربا، ولكن أضاف الكتبة أن ذلك ليس بين اليهود فقط، فجاء الأمر كالتالي: لا تتقاضوا الفوائد من بني إسرائيل... أما الأجنبي فأفرضوه بربا - التثنية ٢٣: ١٩ - ٢٠.

التي يتكون منها المجتمع، ويكونها الملاذ الآمن والحصين للرفاهية النفسية، والعاطفية، والمادية للزوج والزوجة والأولاد والأجداد، والأقارب. شركاء الزواج هم الدروع الواقية لبعضهم البعض:

﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وينبغي توافر السكن والمودة والرحمة بين الزوجين:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

لذلك، فإن المسلمين على اقتناع بأن انهيار الأسرة - كما هي في طريقها إلى ذلك في الغرب - سوف يقود حتمًا إلى انهيار المجتمع، ما لم يمنع ذلك في الوقت المناسب.

وفقًا للقواعد القرآنية، والسنة النبوية، يدافع المسلمون عن المثاليات من نوع العذرية، وتحريم العلاقات الجنسية خارج الزواج. هذا «الاتجاه المحافظ» يتوافق بشكل كامل مع ما كان يمثل القاعدة في الغرب، حتى الحرب العالمية الثانية، باستثناءات.

يسمح الفقه الإسلامي بالطلاق:

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١].

وذلك عندما تستحيل الحياة السوية، ويصبح الانفصال أفضل من استمرار الارتباط بزواج قد تحول إلى سجن لأحد الطرفين أو كليهما. لكن الطلاق يعتبر «أبغض الحلال إلى الله».

كان الشذوذ الجنسي دائمًا موجودًا، داخل الدول الإسلامية. لكن لم يسبق على الإطلاق إعلانه، أو الجهر به، والترويج له مثلما يحدث حاليًا في الغرب، وكأسلوب بديل للحياة، مقنن بروابط شبه زوجية بين المثليين. ينبغي على المسلمين مقاومة كل المحاولات للتبرير وللاعتراف المؤسسي للعلاقات الجنسية المثلية.

بالدفاع الصارم عن الأسرة، يساهم المسلمون بكل ما أوتوا من قوة في منع المزيد من انتشار العنف، وتشريد الأطفال، وانحراف الأحداث (المراهقين).

د. العتق الحقيقي

لا توجد أدنى ذرة من الشك في أن العديد من النساء المسلمات ما زلن محرومات من التمتع بحقوقهن التي كفلها لهن القرآن، خاصة الأميات، واللاتي تزوجن ضد رغباتهن، وغير القادرات على التحكم في مهورهن أو حتى الحصول عليه. الكثير من المسلمات قد تم تخنيطهن بأسلوب مخالف للإسلام، وحرمن من لعب دورهن العام، الذي هن مؤهلات له. في جميع الأحوال، ينبغي تحرير النساء المسلمات، وعتقهن من الاستبداد الذكوري، حتى يتسنى لهن خوض حياة فاعلة.

إنهن لن يتمكن من الوصول إلى ذلك بدون المنافسة مع الرجال، لكن ليس بادعاء التماثل بين الرجال والنساء بدلاً من المطالبة بالمساواة.

الفكرة هي التحرر النسائي داخل إطار الإسلام من استبداد الرجال، وليس التحرر مروقاً من الإسلام.

هـ. التكامل في الجنس

- اتسم العالم الغربي بالتأرجح مثل البندول بين نهايتين متطرفتين:
- النظرة الدونية الكارهة للجنس، مثلما بشر بذلك القديس بولس، وطبقاً لسياسة الكنيسة الرسمية لمدة قرون طويلة.
- التحررية الجنسية، مثلما تبشر بها الثورة الجنسية في القرن العشرين.

الإسلام، بطبيعته كدين للوسطية، يتميز بالحساسية لكل أنواع الغلو، لم يربط الجنس بغواية حواء لآدم بأن يأكل من الشجرة المحرمة، وبأنها مصدر الخطيئة الأصلية، والطرده من الجنة، وأنها رمز كل الشرور على الأرض، ولم يتورط في تحليل الإسراف فيه، بل على العكس، فإن دافع الجنس قد نظر إليه المسلمون على أنه نعمة من الله، طبيعية، وأنه ليس مصدرًا للتكاثر فحسب، بل أيضًا للمتعة والحب المشترك، بالتبعية، لم يعرف العالم الإسلامي أيًا من الرهينة بأسلوبها في التدين الخالي من الجنس.

و. الانحياز للحياة

قد يعطى المسلمون الأفضلية للأم، في حال ما شكّل الحمل تهديدًا لحياتها، لكن الإسلام فيما عدا ذلك من حالات ينحاز للمحافظة على الحياة، حتى في مراحلها المبكرة للغاية، بما يعنى في مرحلة الخلايا الجنينية الجذعية. في الوقت الذي أصبحت فيه شرعية الإجهاض مقبولة

في كل مكان على وجه الأرض تقريبًا، وحتى الأساقفة الكاثوليك الألمان أصبحوا يعارضون البابا تجاه هذه القضية. تسترعى توجهات المسلمين المنحازة للحياة - بشكل لا يقبل التنازل - الانتباه. تعلم الحوامل من الأمهات المسلمات، أن الحياة التي تنمو داخل «بطونهن»، ليست ملكًا لهن يبيع لهن انتزاع نعمة الحياة التي وهبت لأطفالهن من الله.

ومن المثير للاستغراب أن نرى أن الممارسات النازية، مثلها مثل القتل الرحيم، الذي يطلقون عليه «التخلص من الحياة، التي لا تستحق العيش»، هو الآن مطروح بشكل موسع حتى داخل الأقطار «المسيحية» الديمقراطية.

ز - اليقظة (الانتباه)

ربما كان من أعظم إسهامات الإسلام لخلاص حضارته الخاصة وكذلك الحضارة الغربية، هو التزام المسلم باليقظة. تحرم الأديان الأخرى أيضًا إدمان الكحول، والتدخين المتفاقم. لكن لا يوجد بينها ما فيه من الصرامة مثل الإسلام في تحريم تعاطي حتى أقل كمية من أية مادة، قد تؤدي عند الكمية الأكبر إلى التأثير على الوظائف الطبيعية للعقل. لذلك، نستطيع معادلة الإسلام باليقظة.

لا يعني ذلك القول بأن عالم المسلمين يخلو من المخدرات، ولكن لا يوجد اختلاف بين المسلمين على حرمتها، ولا يتناولها أحد علنًا، ولا تقدم على مائدة العشاء بشكل روتيني، وعندما يشرب أو يتعاطى المسلم أي مخدر فإنه إنما يفعل ذلك بضمير غير مرتاح. إنه يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولذلك فإنه لا يملك الحق في تدميرها.

* * *

• السياسة

بالنظر إلى الأوضاع السابق بيانها، يشعر العديد من المسلمين بالحمل الواقع على كاهلهم لتقديم الإسلام بوصفه الحل الناجح، إن لم يكن الدواء الشافي، لمعظم مثالب الحضارة الغربية.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

[يونس: ٥٧].

هذه الجهود المبررة بشدة لا تعنى أن «الإسلام سوف يتلعب كل واحد منا» مثلما افترض د. بيت باخلين في كتابه الذي يحمل العنوان الإنذارى باللغة الألمانية «الهجوم الإسلامي على

أوروبا». لكنها تعنى أن المسلمين في الغرب، عندما يتجاوز نظرهم محيط مساجدهم، فهم على شفا الدخول إلى المسرح السياسى كلاعيين، لا يطالبون فقط، بل يملكون أيضًا ما يقدمونه للمجتمع بكامله:

- التحويل الروحانى من المادية إلى مثالية الحكمة العامة: رأس الحكمة مخافة الله.
- إنقاذ المنظومة الأخلاقية من «أى شىء يجوز»، إلى التمسك بالأوامر الإلهية، وعمادها «حب لأخيك ما تحب لنفسك»، «كلكم لآدم و آدم من تراب»، «إنما البشر سواسية كأسنان المشط».

- العدل والتضامن الاجتماعى بديلاً للفردية المتطرفة ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...﴾ [المائدة: ٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، «لا بيت أحدكم شبعانًا وجاره جائع»، «خير الناس خيرهم للناس».

- الأسرة المتحابه المترابطة:

- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...﴾ [لقمان: ١٤]، «الزمها (الأم) فإن الجنة تحت أقدامها»، من أحق الناس بصحبتك: «أمك ثم أمك ثم أمك، ثم أبوك».

- تحرير المرأة من شتى أنواع الكبت والاستغلال، وعلى رأسه الاستغلال الجنسى.

- اليقظة تحمل محل الإدمان البنىوى.

- النضج البيئى، بدلاً من الاستغلال المنفلت للطبيعة.

- المناداة باقتصاد إنسانى، بدلاً من الاستغلال الرأسمالى.

- الشورى (*) أساس الحكم ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿... وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْبَغُ ...﴾ [الشورى: ٣٨].

(*) وقد ضرب النبى ﷺ أوضح الأمثلة فى مشاورته لأصحابه، حتى فى وقت الحرب، حتى عندما جاءت قريش لاستتصال المسلمين فى غزوة أحد، وجاءت الأحزاب لاستتصالهم فى غزوة الأحزاب، فقد شاور أصحابه ونزل على رأيهم، وهو الذى ينزل عليه وحى السماء. واختيار الصحابة لأبى بكر كان تطبيقاً للشورى، ولم تألف البشرية اختيار حكماها إلا بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون.

ولا مناص من أن يتم ذلك بأقصى روح من التسامح تتيحها التعددية الدينية، والتي لا تتصرف بأسلوب شمولي أو انتقائي تجاه بقية الأديان:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مَخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: ٩٣].

وعلى الرغم من اقتناع المسلمين بأنهم أصحاب الدين القيم، وبالتبعية أصحاب الحلول الصحيحة:
﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اٰخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا اَلْكِتَابَ اِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

فقد وكل لهم فقط مهمة التنافس مع الآخرين في وئام.

وإذا كان القرآن يعلن في صراحة ووضوح ﴿لَا اِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلا إكراه في أى أمر آخر، سواء كان ذلك نظامًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا.

فيما يتعلق بالعالم العربى الإسلامى، فإن ذلك يفرض على المفكرين أن يكونوا أكثر تصميمًا على الدفاع عن التراث والعقائد الخاصة بهم، وإذا عرف المسلمون في الغرب أن لديهم المبررات لمعارضة مادية ولا أخلاقية الحضارة الغربية، فما بالك بالكثرة الوافرة من المبررات التى لدى المسلمين القابعين في قلب أرض الإسلام، لإزاحة السيات الضارة للإرث الاستعماري وتبعاته وأعوانه بعيدًا عن أهلهم.

سوف تتمتع الدول الإسلامية بالحرية الحقيقية، فقط عندما يتمكن قادة الفكر لديها من فك رقابهم من الانبهار غير القابل للنقد بكل شىء غريبى، وأن يعودوا للاعتراف من المصادر الشرعية للثقافة الإسلامية الخاصة بهم.

ولقد حان الوقت لفعل ذلك.

* * *